قلوب عامرة

حنان الشيمي

(زيزو)



مجموعة قصصية

قلوب عامرة

مجموعة قصصية

تأليف: حنان الشيمي (زيزو)

حروف للنشر الإلكتروني
WWW.7ROOF.COM

إهداء

"أهدي هذه المجموعة القصصية إلى كل روح وثابة حبسها الجسد،

إلى كل بطلات قصصي اللاتى دفعن قلمي إلى ان يكتب عنهن،

إلى من تعلمت منهم الصبر والتفاني والجلد،

إلى من كانوا لنا العون والبشر وأشعلوا سراج الأمل فى نفوسنا دفئاً وصدقاً ويقيناً

فكانوا بحق قلوب عامرة"

مقدمة

أشكر المولى -عزَّ وجل- أن وفقني لكتابة هذه المجموعة القصصية،

وأرجو أن تكون إضافة لكل من يبحث عن ترياق حياة يهتدي بها وينتفع بثمارها

فما الحياة إلا بضعة أحرفٍ تخطُّها بيمينك أو تقرؤها بعينيك

فإن لامَسَت حروفي شَغَاف قلوبكم فهذا من فضل ربي

حينما نسلط الضوء على زوايا عمرنا نرى ما لم نره من قبل؛ ربما نجد حلًا لما استعصى، وفرجًا لما بتنا نَعُدُّه مستحيلًا، ويحل الرضا واليقين في وعـــــــــد الله وكــــــــــان وعــــــــــده حقًـــــــــا.

فبينما تبقى ذكرياتنا قابعة في ركن خفي يُولَـد الأمـل مـن رحـم المعانـاة وتنهال البشريات ..

حنان الشيمي

-١-

قلوب عامرة

التقيتها – في أمسية جمعت بعض الصديقات– مشرقة تـضجّ بالحيويـة، ابتـسامتها تأخذ العقول، لفتت انتباه الجميع بذكائها ولباقتها وأناقتها

أبديت إعجابى بها فتلك هي المرة الأولى التي أراها فيها بعد صداقة دامت طويلًا عبر صفحات التواصل الاجتماعي وعبر أسلاك الهاتف.

ندى ... ذاك اسمها كفراشة حالمة، كقطرة ندى تبلل وريقات الزهور

أحببتها حين تحدثت معها وأحببتها أكثر حين سمعت صوتها و رأيتها.

كانت توزع الابتسامات على الجميع فتسحرهم وتبهرهم، قضينا وقتًا ممتعًا دخلت قلبي وشعُرت تجاهها بشيء غريب لست أدري ما هو؟

وحين هممنا بالانصراف رأيت عينيها تتعلق بي تستأثرني من بـين الجميـع لتـستند على ذراعي

أقول الحق ... لقد صدمت بل أكاد أكون صعقت حين رأيتها تمشي

يا الله أكل تلك الحيوية والإشراق محبوسة داخل قفص ؟!.. أكل هذا المرح والتفاؤل ينتهي

بـ بـ .. بقدم معاقة ..... لا تقوى على السير بضع خطوات

وشعرت كأن قلبي يتمزق وتتقطع أوصاله لكني تماسكت حتى لا أحرجها، وهيهات أن يمر موقف كهذا على فطنتها

فسألتني حين عدنا مرة ومرات : هل تغير شعورك حين رأيتِ قدمي؟

صدقتها القول: شعوري نحوكِ صَاحَبَتْه غصة ومرارة وإحساس بالعجز والخذلان.

– فهل قلَّت محبتي في قلبك؟

– بل على العكس حبيبتي لقد ازداد حبي لك

ودَّعتُها ولكن روحها سكنت الحنايا مني؛ فقد تحدثنا طويلًا، كانت كغيمة أصابت أرضًا فسقتها ماءً طهورًا ..

باحت لي بمكنون قلبها وما عانته في رحلتها الطويلة خلال طفولتها وشبابها، فكنت كلما أصغيت لها زاد إعجابي وانبهاري بها، وبتجاربها التي تصقُل النفس وتبعث اسمى معاني الحب في الوجدان ..

قصتها تستحق أن تكتب بماء من ذهب

كيف يا صديقتي أروي قصة أنتِ بطلتها، تستحقين أن تكوني النجمة المتألقة بلا منازع،فقلبك يدور في إحداثيات عالم مثالي كله قلوب عامرة. وبدأت تسرد عليَّ قصتها ..

ففي طفولتها كانت ابتسامتها المشرقة تخطف الألباب وتسحر العيون، كانت دومًا صاحبة طلة مميزة ووجه لا يُنسى.

أينما ذهبت التفت الجميع إلى أناقتها، تلتقط الابتسامات تصاحبها الدهشة والإعجاب، صغيرة العائلة المدللة من الجميع، إذا ابتسمت رقص البيت فرحًا وإذا حزنت تصدعت جدرانه همًّا ونكدًا.

أول من ينادي عليها والدها حين يأتي محملًا بأكياس الحلوى التي تحبها، يأخذها في حضنه، يقبلها ويسألها عن يومها فتحكي له بينما يشرق قلب أمها بفرحة صغيرتها

يحتضنها والدها ويمطرها بالقبلات

-هيا أخبريني يا صغيرتي ماذا فعلت اليوم؟

-قرأت قصة جديدة للعم بطوط

يضحك الوالد فرحًا بصغيرته

ويتبارى الإخوة في إسعاد الصغيرة تارة باللهو وتارة باللعب وعند خروجهم من المنزل ينخلع فؤاد الأم حسرة وكمدًا وهي ترى نظرات الشفقة والعطف في عيون من حولها ولكن الصغيرة كعادتها تعلل نظرات الناس اليها بأنها إعجاب بأناقتها وليس حسرة على إصابتها بإعاقة في قدمها.

اعتادت ندى تلك النظرات ومع الوقت أصبحت لا تعيرها اهتمامًا؛ في طفولتها تعرضت لأكثر من موقف أبكاها أيامًا وأسابيع لأنها تعلم أن الأمر ليس بيدها

ما بال الجميع يحملونها تبعة إعاقتها؟

كانت في حفل زفاف إحدى قريباتها، طفلة صغيرة لم تتجاوز العاشرة، في منزل العائلة جلست وحينما قدم العريس مع عمها سارع بمصافحتها

فقدمها له العم قائلًا ابنة أخي ندى عندها شلل أطفال شعرت بأن الدنيا تدور بها، أرادت أن تهرب من عيونهم وتتلاشى .. خرجت من الحجرة سريعًا فنظراتهم تقتلها .. تحاكمها ثم تنتهي بشفقة ومصمصة شفاه.

ألا يرون فيها سوى عجزها ألا يلمحون فيها سوى إعاقتها أعمي هم ؟!!

وسارت في الحقول تبكي بحرقة تندب حظها الذي لا تملك منه أي شيء.

شعرت بالوقت يمر سريعًا والظلام بدأ يهاجمها فأسرعت بالعودة، عادوا بعدها إلى القاهرة ولكنها لازالت تحمل تلك الذكرى المؤلمة ومثيلاتها تركن في نفسها جرحًا غائرًا.

ولكنها آثرت أن يدفعها حنقها على نظرة المجتمع لإعاقتها إلى التميز وبدأت تلفت انتباه الجميع لأشياء أخرى غير إعاقتها.

أصبحت مشهورة وسط الجميع بمرحها وخفة ظلها حتى أن جيرانها كانوا يستمتعون بها وبتعليقاتها ونكاتها.

وأحبت القراءة كثيرًا فكانت تقرأ عن الفن والفنانين حتى سماها والدها ميكي ماوس.

استمر هذا حتى وصلت إلى المرحلة الإعدادية فازداد تألقها في المشغولات الفنية والرسم إلى جانب قراءة الروايات والقصص .. كانت تعشق علم النفس لتبحث عن أسرار ومكنونات النفس البشرية

وأدركت أنها تلفت نظر الجميع إلى شيء آخر غير عجزها فلماذا يختزلونها هم في قدم معاقة؟

ونظرًا لميولها الأدبية التحقت بالقسم الأدبى وأنهت الثانوية العامة، وقررت أن تلتحق إما بكلية الفنون الجميلة أو الآداب قسم علم نفس الذي تعشقه.

وفعلًا خاضت امتحانات القدرات الخاصة وحصلت على أعلى الدرجات ولكن مجموعها لم يؤهلها لكلية الفنون الجميلة فالتحقت بكلية الآداب ...

وكانت تريد قسم علم نفس وبعد سلسلة من الخطوات اصطدمت باللوائح والقوانين التي تمنع المعاقين من الالتحاق بالكليات العملية وكان في قسم علم النفس جزء عملي

رفض عقلها هذا المنطق المعوج وتحدت الجميع، فذهبت إلى رئيس الجامعة وعميد الكلية ورئيس القسم قدمت الشكوى تلو الأخرى، وهي تسأل عن السبب فتأتيها الإجابة موجعة "إنها إعاقتك" .. ترد وهل أنا معاقة في عقلي؟

ومع تحديها وإصرارها حين دخلت لعميد الكلية تناقشه أسباب رفضه وهذا القانون البغيض أعجب الرجل بمنطقها وصلابة رأيها فوافق على طلبها وكانت ندى أول معاقة تلتحق بقسم علم النفس.

وبدأت ندى دراستها الجامعية في تحدٍّ يتلوه تحدٍّ وإصرار لا يعرف اليأس فكانت بحق تنير الطريق لها ولمن بعدها.

كالشمس تختار كل يوم بداية مشرقة، اختارت صديقتي إشراقة الحياة، لم تُعر الحزن التفاتًا، هزمت اليأس ودحرته، فبالرغم من مجتمع لا يرحم المعاقين ولا يحترم آدميتهم؛ ولا يوفر لهم طرقًا خاصةً أو حتى وسائل مواصلات تراعى ظروف إعاقتهم، أو يعطيهم ولو جزءًا يسيرًا من حقهم في دخول المطاعم والمحلات التجارية بطريقة لائقة لا تجرحهم، أما عن استخراج الأوراق أو التعامل مع المصالح الحكومية فحدث ولا حرج.

فقد منحها كلٌّ من حولها الأمان، لم تبخل عليها أسرتها بمالٍ أو وقتٍ أو جهد، فحموها من زحام المواصلات ووفَّر لها والدها عربة تقلها إلى الجامعة، ومن قبل كانت والدتها ترافقها إلى مدرستها ذهابًا وعودةً، تقدمت في دراستها الجامعية في تحدٍّ وإصرارٍ عجيب، وأجرَت خلال تلك الفترة جراحة في قَدَمِها بعد استخارةٍ وتوكلٍ على الله. تحلم بقدم تسير بها دون التوكز على أحدٍ، دون التعثُّر في خطوات ثقيلة.

وبعد أشهر من الجبس والتجبير وطوفان من الأوجاع لمسَت تحسُّنًا لا يُذكر فبالكاد خفَّت الآلام واستمر العجز كما هو. حملت أمنياتها المعطلة،

وأحلامها المؤجلة، ورتَّبت فوضاها الداخلية، واستعاضت بالرضا عن سراب الأماني ونزق الأحلام، ورتقت ما بعثرته الأمنيات ودعَتْ ربها أن يملأ حياتها وينير طريقها فجاءتها البشريات ..

في جلسةِ سمرٍ عائليةٍ أخبرهم الأخ الأكبر أن الشركة التي يعمل بها أعلنت عن وظائفَ شاغرة، وأن بإمكانهم الالتحاق بها فطلب منها الجميع أن تقدم لهم أوراق اعتمادهم لأنها تتقن الكتابة على الكمبيوتر، وبالفعل أرسلت طلبات التقديم لهم جميعًا، وفي لفتة فُكاهية منها أخبرتهم أنها ستتقدم للالتحاق بالوظيفة، ضحك الجميع ولسان حالهم يخبرها بما تعجز عنه ألسنتهم، كيف وأنتِ لم تتمي دراستك بعد؟ كيف وأنتِ لا تستطيعين السير بضع خطوات؟

وتأتي البشارة وسط دهشة الجميع التحاقها بالعمل دون وساطة بعد سلسلة من الاختبارات والصعوبات، كانت تجربة العمل بالنسبة لها تجربة ثريَّة صقلت شخصيتها، فقابلت نفوسًا ضعيفةً وقلوبًا مريضةً وشخصيات مهترئةً، وهي التي كانت في خدرها لا تعرف الحيل والألاعيب، لا تدرك حقد الأنفس وضغينة السوء، مملكتها الصغيرة لا تعرف كل هذا، فلما رأته بعينها صُدمت أول الأمر ولكن ما لبثت أن تعاملت معه بخلفية دينية واجتماعية سليمة، فلم تنكسر أو تنهزم، حتى وإن جُرحت وأُوذِيَت، ولكنها كانت تخرج أشد صلابة وأكثر قوة، وما هي إلا أشهر قليلة حتى صار الجميع يحبونها وأصبحت أخصائية اجتماعية وطبيبة نفسيَّة للجميع، يُلقون عليها معاناتهم فتهديهم إلى حلول سحرية، لم يفطنوا إليها.

وبعد أن حصلت على شهادة إتمام الدراسة صار لها مكانٌ أفضل، فالتحقت بقسم العلاقات العامة وأبدعت فيه وأبهرت الجميع، ولأنها تريد الاحتشام والتقرب إلى الله دائمًا أحسَّت أنها لا بدَّ وأن ترتدي ملابسَ فضفاضة وكانت خطوة في طريق النقاب الذي حلمت به دائمًا، قضت عامًا ونصف تقرأ وتبحث عن الأدلة حتى تستطيع الرد على المشككين، وحتى تنتهي من التزاماتها المالية؛ فقد خشت أن يتعنتوا معها أو يفصلوها من العمل.

ولما حان الوقت ارتدت النقاب وكانت فرحة العائلة بها لا تعادلها فرحة، أما في العمل فقوبلت بسيلٍ من التثبيط والتشكيك، ولكن الله وفقها إلى الصمود، وصار زملاؤها يدافعون عنها وعن نقابها بتوفيق من رب العالمين، وكان يقطن بجوارهم زوجان شابان، لديهم طفلة جميلة لطالما أحبتها ندى ولعبت معها، كانت براءة ملامحها تحمل طهرًا، وضحكتها تشرح القلب الحزين، وفي يوم طرق جارهم الباب وعلى يديه طفلته يداعب النوم أجفانها ..

–هل أستطيع ترك نسمة عندكم فالوقت متأخر واخشى أن تنام منا في الطريق

رد والد ندى:

بالطبع على الرحب والسعة كن مطمئنًا عليها

–جزاكم الله خيرا سأحمل والدتها للطبيب وسنعود سريعًا بإذن الله

أخذ الأب الطفلة أسكنها حضن ندى الدافئ، ومرت الساعات وبدأ القلق يهاجم الجميع، ومرَّ يوم كامل والطفلة تبكي قليلًا فتهدهدها ندى .. أحضرت لها بعض الطعام المناسب لسنها وأخذت تعتني بها، وفي المساء طرق الباب رجلٌ ريفيٌّ عجوز، إنه خال الطفلة الصغيرة وبعد أن التقط

أنفاسه أخبرهم بأنه قد وقع حادث لأخته وزوجها وتُوُفِّيا على إثره، وأنه مسافر لدفنهما في البلدة، وابتلع الجميع غصة حلقهم بينما استعد الأب للذهاب معه وبقيت الصغيرة ولكنها صارت تبكي بشدة وترتجف وكأنها تستشعر ما ينتظرها.

وعاد الأب من مراسم الدفن مستغرق الفكر، حتى اجتمع بعائلته وأخبرهم أن الصغيرة صارت بلا مأوى وليس لها سوى ذاك الخال العجوز، ولن يستطيع تحمل مسئوليتها، وأنه تكفَّل بها وسيمضي في إجراءات الوصاية عليها، تضاربت مشاعر الجميع بين الفرح والألم، فمازالت رضيعة بالكاد تخطو خطوات متعثرة، أمسكت ندى بها وضمَّتها إلى صدرها علها تهدئ من روعها، وربط بين قلبيهما شيءٌ ما.

ملأت الصغيرة المنزل حبًّا ودفئًا بعد أن كانت جدرانه باردة ولياليه هادئة، لا مرح ولا صخب ولا ضجيج، أما ندى فكانت مشاعرها مختلفة؛ قذف الله حب نسمة في قلبها قذفًا فصارت كل حياتها تعتني بها في كل شيء، تشتري لها كل ما يقابلها من ملابس ولعب وحلوى، تبتسم الصغيرة فيخفق قلبها سعادة، تبكي فيتمزق قلبها حزنًا وألمًا وأصبحت لا تريد من الحياة سوى فرحة عيون صغيرتها وتلعثمها وهي تنطق حروف كلمة ماما وأصبحت ندى أُمًّا قبل الأوان ..

ويستيقظ الجميع يومًا على صوت أم ندى تصرخ وتنادي على زوجها تستحثه أن يرد عليها ولكن بلا جدوى فقد رحل الأب تاركًا ندى ونسمة في رعاية الأم والإخوة، ويعصف الحزن بقلب والدة ندى فترحل عن الدنيا بعد أقل من عام على رحيل الاب ويمسى البيت فارغًا عليهما بعد زواج الإخوة ..

وترفض ندى الزواج فنسمه لازالت تحتاج إليها وكلما تقدم خاطب لها تتعلل وتتحجج ولكنها في قرارة نفسها تخاف على نسمة تخاف أن تجرح مشاعرها بعد ما عانته من آلام فقد الأب والأم والمأوى والسكن ..

كيف تعرضها لألم فقدها أيضًا؟

وتمر الأيام وتكبر نسمة وتلتحق بالمدرسة وتتعلق أكثر وأكثر بندى حتى

جاءت ذات صباح: لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى

ردت ندى في دهشة لمَ يا ابنتي؟

–هل أنا ابنتك حقًا؟ أخبريني أين أبي؟

وتتنفس ندى بألم وتمسك برأس الصغيرة وتضمها بقوة .. كم مرة أخبرتك أنني أمك وأبوك وكل عائلتك؟

–ولكن ..

تقاطعها ندى: نسمة أنا وأنت ليس لنا أحد سوى الله أنت ابنتي وصديقتي وحياتي كلها لن اتركك ابدًا

–ألن تتزوجي؟

تبتسم ندى وهي تحتضن نسمة وتضمها بقوة إلى صدرها: لن أتزوج .. ماذا أريد من الحياة أكثر من هذا؟ ابنة تشبه القمر تحبني وأحبها ..

وتفتش ندى في حقيبة ذكرياتها فتجد نسمة تملأ الركن الدافئ منها، ابتسمت برضا وتيقنت أن الله –سبحانه وتعإلى– عوضها بنسمة عن مرارة الحياة فأبدلت حزنها فرحًا وشقاءها سعادة

وتمر الأيام ولا تعرف نسمة أمًّا لها غير ندى، وتكتفي بها ندى مـن الحيـاة فلا تريد سوى سعادة ابنتها.

وحين التقيتها مجددًا، كانت كعادتها لا تفارقها تلك الابتسامة العذبة، كان المكان حميميًّا يليق بلقاء رائع، تلك المصابيح الملونة المتدلية من سقفه، نلتمس منهـا بعـض الدفء، وتلك المقاعد الوثيرة تبعث على الارتياح والهدوء، تنهدت ندى وهي تبادرني بقولها: ((لقد حزمت أمري .. لن أتزوج! ! هذا قرار نهائي)). دهـشت مـن صـرامة صوتها، فقد كنت عرضت عليها أن تفكر بالأمر جيـدًا، أشـفقت عليهـا وهممـت أن أرد، ولكنها أسكتتني بإشارة من يدها، وهي تنظر عبر زجاج النافذة التي تطل على شارع طويل تحيط الأشجار بضفتيه، علـى امتـداد البـصر، لقـد جـاوزت الأربعـين، وأصبحت نسمة فتاة جميلة .. ملأت حياتي، وليس لها أحد سواي، لم يعـد هنـاك متسع لرجل، ربتت على كتفها وسألتها: وحينمـا تتـزوج نـسمة وتـستقل بحياتهـا وتتركك وحيدة .. ماذا ستفعلين؟ لا أريـدك أن تنـدمي في يـوم مـن الأيـام. وتأهبـت السماء لرحيل الشمس عنها، وعانقت ألوان الطيف فأضفت على المكـان جـوًّا خلابًـا جعلها تتكئ على مقعدها وأسندت رأسها إلى الوراء كمن يستعيد ذكريات ماضيه، إنه قدري وأنا راضية كل الرضا، ولم يعد هناك مجال للحديث معها عـن أي شـيء قـد يغير قناعاتها، فأخذ الحوار مأخذ المرح المعتاد منها وافترقنـا وظللـت أفكـر طويلًـا، أيمكن للمرء أن يضحي بنفسه ليسعد الآخرين؟ تلك هي ندى قررت أن تفنـي عمرهـا لترسم لبسمة طريق سعادتها شمعة تحترق كي تنير طريقها، وطنت نفسها على حب الخير للجميع بدءًا بأخوتها، ومرورًا بجيرانها وأصدقائها وزملاء العمل، وكانت بحق موطن قلوب عامرة.

-٢-

شـارع الزهور

دلفت ابتسام إلى المتجر علـى عجـل اشـترت بعـض الملابـس لابنتهـا كنـزات رائعـة وجوارب ملونة وبعض الفساتين المطرزة.

همت بالانصراف وحينما وصلت إلى بـاب سيارتها اقتربت منها سيدة قروية في الثلاثينيات من عمرها، تمسك فتاة صغيرة تجرها جـرًّا وعيون الصغيرة ممتلئة بالانبهار والذهول ربما من الزحام أو الأضواء

سألتها السيدة أين شارع الزهور؟ -بينما الصغيرة تستند على السيارة منكسرة حزينة مصفرة الوجه بالية الثياب-

أجابتها ابتسام: آخر الممر جهة اليمين.

شكرتها السيدة وسحبت الصغيرة ومضت

نظرت ابتسام إلى أكياس مشترياتها وتمنت أن تعجب ابنتها ريم، وسرحت قليلًا تفكر أن ريم في نفس عمر تلك الفتاة القروية ونفس جسمها وحجمهما تقريبًا

وصلت إلى بنايتها وصفّت السيارة في المرآب وإذا بها تصطدم بنفس السيدة القروية وهي تدور حول نفسها في حيرة

ابتسمت لها وبادرتها عمّ تبحثين؟

قالت : رقم سبعة عشر هل هو هذا المبنى؟

أجابتها : نعم إنه هو

ودخلا البناية واستقلا المصعد سويًا وعيون الصغيرة متعلقة بأكياس المشتروات خاصة ابتسام، وشردت تسأل نفسها تُرى ماذا تحويه تلك الأكياس؟

ربما طعام لحم ودجاج و و و

ربما حلوى وتذكرت أنها لم تذق الحلوى منذ فترة طويلة

ربما بها أحذية ملونة وملابس مزركشة

وانتبهت على صوت ابتسام تسأل والدتها أي دور تصعدين؟

فأعطتها ورقة صغيرة بها العنوان دهشت ابتسام وقالت : إنه عنوان شقتي من تريدين؟

أجابت : السيدة منال

قالت : نعم إنها والدتي

وصل المصعد إلى الدور السابع وفتحت ابتسام باب شقتها ودعتهم للدخول ريثما تخبر أمها، ونادتها : اين أنتِ؟

أجابتها الأم: نعم أنا هنا مع ريم نشاهد التلفاز لمَ تأخرت؟

أجابتها : كنت أشتري بعض الملابس الجديدة لريم .. آه أمي هناك سيدة تسأل عنك

ردت الأم: ربما تكون المرأة التي طلبت من خالتك إرسالها لتنظيف المنزل

خرجت الأم تبعتها ابتسام ووراؤهم ريم

وجدن السيدة تقف بجانب الحائط سائلة من أين نبدأ؟

صاحت ابتسام وهل البنت ستعمل معك؟

تنهدت السيدة وقالت : إنها معتادة على ذلك

وبـدأتا التنظيـف وعيـون الـصغيرة لازالـت متعلقـة بأكيـاس المـشتروات

كان البهو عبارة عن صالة فخمة ذات أثاث كلاسيكي قديم موزع بفن

وبراعة ولمسة ذوق رفيع تتوسطه مزهرية كبيرة الحجم ذات زخارف متناسقة وألـوان خريفية رائعة وفي صدر القاعة أريكة خشبية من خشب الأبنوس ذات طـراز إغريقـي تحيط بها المقاعد وفي الوسط منضدة متوسطة الحجم تضفي علـى المكـان رونقًـا فريـدًا بألوانها المتناغمة وعلى الحائط المقابل لوحة فنية لقصر منيف أضفت على البهو جـو القصور ..

تنهدت السيدة منال وهى تستدير فـترى الفتـاة إلى جـوار الكرسـي الخـشبي المطعـم بالصدف الملون والزخارف العتيقة، وتلحظ المفارقة العجيبة الـتي اجتمعـت في فـضاء واحد فتبادلت معها نظرات الود والحنان وسألتها هل تناولتِ فطورك؟

أسرعت الصغيرة تنظر إلى أمها في رهبة وتوسل وهزت رأسها بالنفي ربتت على كتفها وأشارت عليها أن تتبعها وناولتها بعض الأطعمة المجهزة وسألتها :

ما اسمك؟

أجابت –وهى تقضم ساندويتشا من الدجاج المقلي–: نورا

أسرعت ابتسام تبحث في خزانة ابنتها عن ملابس قديمة لم تعد ترتديها ريم وبعد أن جهزت حقيبة جلدية قديمة ملأتها ملابس وأحذية ولعب لم تعد ريم تلعب بها

تذكرت درسًا سمعته عن أفضل الصدقة وأطيبها وأن الصدقة تقع في يد المولى -عزّ وجل- قبل أن تقع في يد البشر، وعزمت أن تتصدق مما اشترته لابنتها على تلك الفتاة نورا

نادت ريم وطلبت منها إحضار الملابس الجديدة وشرحت لها معنى الصدقة وأفضلها وأطيبها وسألتها هل تريدين إعطاء نورا من ملابسك الجديدة شيءا؟

ابتسمت ريم وقالت: نعم، أعطيها الفستان الأحمر سيكون رائعًا عليها

قبَّلتها الأم ودعت لها وطلبت منها أن تعطيه هي لنورا وأن تضعه في غلاف

جميل. وبعد انتهاء العمل حزمت أم نورا الأكياس التي أعطتها لها السيدة منال من طعام وملابس وأشياء اخرى، ودسّت في يدها مبلغًا من المال وطلبت منها أن تحفظ العنوان وتأتي إليهم مرة كل أسبوع

شكرتهم السيدة ودعت لهم وقبل أن تغادرا أعطت ريم لنورا الفستان الأحمر وارتسمت ابتسامة جميلة على وجه نورا وهي تغلق الباب وتكرر العنوان كما طلبت منها السيدة منال: شارع الزهور .. شارع الزهور.

-٣-

اغتيال

مر وقت طويل وهو قابع بين الأشجار بعد أن تسلل عبر الحديقة الخلفية..

درس نوبات الحراسة وطرقات القصر جيدا على مدى شهور طويلة، حتى استطاع أن يضع خطة محكمة.

فكر فى الأمر كثيرا قبل أن يقدم على هذه الخطوة، سينفذ فيه حكم الإعدام!... فمن قتل يقتل ولو بعد حين.. وها قد حان وقت القصاص.. إنه يستحق القتل ألف مرة...!

موعد تغيير الحراسة الآن.. استعد لحظة أن غادر الحراس الثلاثة أماكنهم ليتسلموا أسلحتهم.. أخذنفساً عميقا، وقفز إلى الشرفة، وبحركة خفيفة كان قد تدرب عليها كثيرا فتحها ودلف إلى الداخل.. كان الظلام دامساً.. اختبأ خلف ستائر النافذة..

مرت دقائق وهو يفكر فى حياته.. مستقبله.. كيف سيعدم.. وكم من الإتهامات ستكال له..! ولكنه قد حزم أمره ولا رجعة...

أحس بخطوات قادمة.. انفتح الباب ودخل شخص إلى الحجرة. فكر للحظة "ربما ليس هو!؟"..

مد رأسه قليلا ونظر بطرف عينه من وراء الستائر... إنه هو...

اعتدل ثانية خلف الستائر و أخذ يقرأ بعض الآيات القرآنية ودعا لنفسه ولوالديه ولوطنه أن يعود حراً.. استغفر ربه، وتلا الشهادتين، وفى حركة مباغتة أطلق عليه رصاصة واحدة من مسدسه الكاتم للصوت

استقرت بين عينيه...! وتناثرت الدماء فى أرجاء الحجرة بينما قام الأخير قبل أن يلفظ أنفاسه بالضغط على جرس استدعاء الحراس أمامه على المكتب قبل أن يرتطم جسده بالأرض فاقداً الوعي...

نظر إليه نظرة خاطفة وهو مضجراً في الدماء وسرعان ما سمع صوت شخص قادم مهرولاً في الـدهليز القريـب... فقفز من النافذة فى نفس اللحظة التى دقت أصوات الإنذار فى كل مكان، وهرع الحراس الى داخل القصر

في حين كان هو فى طريقه إلى الخارج...

لم يصدق نفسه وقد وصل إلى منزله...!

ألقى بنفسه على السرير وغط فى نوم عميق. قطعه صوت طرقات عنيفة انتهت بتحطيم الباب!

فرك عينيه وهم بالقيام بينما عيون كثيرة تحملق فيه لرجال وقفوا على رأسه..

ببراءة وتلقائية مطلقة قال لهم مذهولاً "ما بكم!؟ إنه مجرد حلم!"

فبادره صوت غليظ "وكيف تجرؤ على الحلم بقتل الرئيس!"...

ولم يمهلوه وقتاً للرد..

اقتادوه الى جهة غير معلومة أسابيع طويلة من التحقيقات المصحوبة بتعذيب وحشى، انتهت به إلى أن ألقوه فى طريق مهجور لا يكاد يقوى على السير...

مرت ساعات حتى استطاع ان يحبو ليصل إلى الطريق العام.. أقله أحدهم بسيارته إلى منزله.. قرر ألا يغادر المنزل، وألا ينام خشية أن تطارده الأحلام والكوابيس مرة أخرى.. أخذ حماماًدافئاً وجلس يشاهد التلفاز لمقاومة النوم. أخذ يقلب فى قنواته، فيلم وثائقي قـديم.. إنه مدعاة للنوم. برنامج حواري حـاد.. لا يريد التفكير فى شئ.. برنامج الطاهي المحترف المفضل لديه... لا يطيق النظر للطعام..

وأخيراً وجد ضالته قناة الأخبار!

أخذ يستمع إلى النشرة، كان الخبر الأول..!

"إعلان حالة الحداد لوفاة رئيس البلاد"..

قفز من مكانه بينما اتسعت حدقتيه وهو يكمل بذهول: "بطلق نارى غادر"

-٤-

أم الشهيد

في إحدى الأحياء القديمة وسط مزارع الزيتون وبساتين الليمون بيت صغير يعج برائحة زهر الليمون بينما صوت طلق ناري مدوي كاد أن يصم الآذان في محاولة يائسة لترهيب الناس.

ألبسته سُترتَه وكأنها تلبسه حلة عرسه، أطالت النظر في عينيه قبّلت جبينه وأوغلت في صمتها معلقة عينيها بعينيه، تستجدي الكلمات المعلقة على طرف لسانها الساكن، فالأرض عطشى ولا أمل في سحابة ترويها، أما جليد اليأس فسيذيبه لهيب دماء الشهداء.

ضمته إلى صدرها بحنان، فتبخَّر خوفها كقطرات مطر تحت أشعة الشمس تحاول وأد المستحيل أو حتى تعزيره.

ما بال النوافذ مغلقة والأبواب موصدة؟!، فليس للحياة معنى بلا أمل ... بلا كرامة .. بلا وطن.

ربما نحن أكثر بؤسًا منهم وأقل يقينًا في حلمنا الزائف وواقعنا المهترئ عفنًا وخذلانًا.

مزَّق نياطَ قلبه شهقاتُها المكتومة ولكنها باغتته بقبضة على ذراعه قائلة في صوت ثابت:

عدني يا ولدي ألا تعود حتى تقتلهم جميعًا، اقتل من سرق أمسنا

وسحق مستقبلنا ودنسّ تراب أرضنا ونهش عرضنا بلارحمة، اقتل من مزّق أرواحنا وكمّم أفواهنا واستباح مقدساتنا.

رفع يديها إلى فمه قبّلهما ومسح بهما وجهه فهو يعلم أن تلك اليدين طالما رُفعت إلى السماء تدعو له، شعر بها ترتجف فأشفق عليها، ضمّها إلى صدره، أحسّ بهزة قلبها، ذلك القلب الذى سيتمزق حزنًا عليه، وسيعتصره الألم لحظة وداعه.

تتأرجح مشاعرها بين مرارة الفقد وفرحة الميلاد، شعوران متضادان، كلاهما حزن.

وما لبثت أن استجمعت شجاعتها وشدّت جسدها الواهن وانتزعته من حضنها قائلة سألقاك في الجنة، حيث الحور العين بانتظارك ياولدي بمشيءة اللّه.

لم يستطع النظر إليها مرة أخرى فلقد احترق فؤاده إشفاقًا عليها وزادت لوعته بتظاهرها بالثبات، تكابد القهر في صمت وتقاسي الألم في سكون.

قرر أن يرحل دون أن يلتفت إليها رأفة بها وابتعد قليلًا فنادته لم يجبها ومضى، فنادته مرة أخرى تُراها تراجعت وكشفت عن ضعفها، تُراها أشفقت عليه؟ ابن عمرها، وحيدها، سندها، ووتدها، لكنها في إصرار عجيب تمد يدها وتناوله سكينة بابتسامة حزينة قائلة: اقتلهم جميعًا يا ولدي.

-٥-

غرور

نادت المرضة اسمها مرة ومرات، فجاءت الإجابة بصوت واهن وهي تستعد للقيام .. لحظة دخوله عيادة طبيبة النساء، وقد تعلقت بذراعه زوجته زاد حجابها من جمالها، تستند عليه في ألم من ثقل في أحشائها فقد كانت في الشهور الأخيرة من حملها.

مرت بجانبه ....

التقت نظراتهما .. امرأة هزمها غرورها وتكبرها، أما هو فكانت نظراته باردة كالجليد مات حبها في أعماقه بعد أن منحها الفرصة تلو الأخرى كي تترك عنجهيتها وتسلطها.

ولكنها أبت ورفضت حتى أمنيته في وجود طفل يملأ فراغ حياتهم، وكانت إجابتها قاتلة:

كيف أدمر أنوثتي وجمالي بحمل وولادة ورضاعة، كيف أشق على نفسي بحمل ثقيل فالأمومة مرهقة، والمسئولية شاقة؟

افترقا في صمت، لاعنًا الجمال والأنوثة المصحوبَين بغطرسة ورعونة.

ومرت السنون وتزوجت رجلًا آخر، أرادت أن تنجب منه طفلًا ولكن هيهات لمن تحدى قدرة الخالق أن ينعم بعطاياه

فصارت تدور في فلك الأطباء تبحث عن معجزة تشبع بها غريزة أمومتها الضائعة ..

-٦-

مدينة الأقزام

يُحكى أنه كان في بلاد بعيدة مملكة عظيمة لها تاريخ عريق، وأمجاد تليدة، تولَّى حكمها ملك قصير القامة ضيِّق العينين، سبَّب له هذا عقدة نفسية.

فصار لا يطيق رؤية أي شخص طويل، وإذا حدث ورآه هاجَ وماجَ وأكلت الحسرة قلبه على قامته المنقوصة وعيونه الممصوصة.

ومرت الأيام ووصل الأمر مداه وأصبح الملك على آخره ومنتهاه.
وكان حوله شرذمة من المستشارين وحفنة من العرابين قصيري القامة، ضيقي الأعين والعقول.
جمعهم الملك يومًا وبثَّ إليهم شكواه، وباح لهم بمبتغاه، فتقدَّم كبير العرابين العجوز صديق اللصوص، وصاحب المشورة لكل ملك مهزوز.

وضع خُطة محكمة وتفتق ذهنه عن وصفة مُجرَّبة، فجمع الأبواق المأجورة وعلماء السلطان وأصحاب المال والأعمال.
وبدأت الأبواق تُوهم الناس أنَّ طويلي القامة لهم ميول عدوانية وصفات إرهابية، أما العلماء فأصدروا الفتاوى عن طول القامة وبشاعته، وأن الأولياء والأتقياء والرسل والأنبياء كانوا قصيري القامة.

وصدَّق الناس حديثهم فأصبح طويلو القامة منبوذين، يختبئون من العيون، يخجلون من قامتهم. وبدأت الأحكام تصدر بالإعدام على بعضهم، ففرَّ جزءٌ كبير منهم خارج البلاد، وصار الطول وَصْمة عار وجريمة بين العباد.

وبدأت العائلات تشترط على من يرغب في مصاهرتهم قصر قامته، حتى اندثر من البلاد كل طويل، وصارت المدينة كلها أقزام.

-٧-

ياسمين

كانت زوجةً مثالية، بيتها يتلألأ، تشعر فيه بدفء عجيب!
في كل ركن لمسة منها تضفي عليه جمالًا وتألقًا

أبناؤها عمر ورقية .. غاية في النظافة والذكاء
كل شيء مرتبٌ ومنظم

كانت ياسمين تحب بيتَها وزوجَها وأولادَها
وفي يومٍ كانت تعد طعام الغذاء، دقّ جرس الهاتف، وردت رقية
وكانت طفلة صغيرة لم تكمل عامَها الخامس، وبدأت حوارًا طويلًا
مع طرف آخر أخذ يستدرجها

–ما اسمك ؟

أجابت رقية ..وأنت؟

–أنا عمو أحمد

وبسذاجة ظنته عمها فاسمه أحمد أيضًا

–أين أمك؟

–في المطبخ تعد الطعام

–ماذا تعد؟

-أرز ولحم وفاصوليا خضراء وسلاطة أبي المفضلة بالخس والفلفل الملون

-ماذا ترتدي أمك؟

-ترتدى تنورة قصيرة لونها أخضر وبلوزة قطنية لونها أصفر اشتراها لها والدي بمناسبة عيد ميلادها

-وأين ينام والدك؟

-في غرفته، فأمي رتبت الغرفة وفرشت ملاءة زرقاء يحبها والدي، ووضعت له عطره المفضل على الرف وبيجامته بنية اللون

وأخذ يسأل وهي تجيب ببراءة!

بينما هو ثعلب ماكر أخذ تلك التفاصيل واتصل بعدها بزوجها وأبلغه أنه على علاقة بزوجته فنهره وأغلق الهاتف في وجهه، بينما الذئب يعاود افتراس الضحية كلما حانت الفرصة..

فاتصل مرة أخري وأخبره بتفاصيل بيته؛ أسماء أولاده، لون بيجامته، ترتيب غرفة نومه، لون ملابس زوجته، فانهار الزوج في لحظة وصب غضبه على زوجته بينما هي مذهولة!

تقسم أنها لاتعرفه، ولكن هيهات لمن دخل الشك في قلبه

ويطردها من بيتها وتذهب إلى بيت أبيها ودموعها على خدها مظلومة مطعونة في عرضها، ويحاول الأقارب التوسط دون جدوى، ويطلقها وتمر أيامٌ وشهور وسمعتها قد دُنسَت ولكن هناك من هو

متأكد من براءتها إنه صديق أخيها تربى في منزلهم، كان يحبها في صمت ولم يجرؤ على البوح لضيق ذات اليد فهو واثق من براءتها، فتلك الملامح الطاهرة والقلب الطيب لا يستطيعان الخيانة

وتزوجها بعد تعهد بالحفاظ على أبنائها، وتمضي الأيام ويدق جرس الهاتف مرة أخرى

–من؟

–أنا الذى اتصلت بك سابقًا واتهمت زوجتك بالخيانة

–أغلق الهاتف قبل أن أغلقه في وجهك

–أرجوك أنا بين الحياة والموت تعرضت لحادث وأنا الآن في طريقي إلى المشفي أريد أن أبرئ ذمتي وألقى اللّه بقلبٍ سليم لقد ظلمت زوجتك وافتريت عليها وأنا لا أعرفها ولا أعرفك سامحني

وينهار الرجل في لحظة ويتمتم بكلمات غير مفهومة ويرد أخيرًا خربت بيتي منك لله.

-٨-

فنجان قهوة

أمسكت فنجان القهوة بين يديها .. ضمته بقوة .. كأنها تخشى أن تفقده، كان يومها طويلًا وشاقًا، بعد أن جمعت أغراضها ولملمت حقائبها، لاصوت حولها سوى أنفاسها ورشفات القهوة الساخنة.

تذكرت كلماته الليلة الماضية كانت كسياط تجلدها بلا رحمة، ابتسمت في أعماقها ابتسامة باهتة منكسرة.

فصوته الغاضب وصياحه الرهيب ليلة أمس سرق منها أمنيات المستقبل الذي تردَّى في بساتين أحلامها فارتطم بأشواك واقع أدمته فسال منه الود وأرداه قتيلًا.

ألا من كلمةٍ تخفف من أوجاعها؟

صمتت لأنَ الكلام مؤلم والبوح محاولة لإيغال الجراح. مجروحة لكن روحها تتظاهر بالنسيان، تتعاطى الأمان برغم الحزن والأسى، حزينة إلاَ أن شمس يومها تشرق كل يوم بإصرار، ففي قرص الشمس تراقصت أحلامها وكبرت أمنياتها، فتذكرت وعد ربها بجنةٍ عرضها السماوات والأرض وبشِّر الصابرين، نعم اختارت الصبر، فاستنشقت عبير زهورها واستشرفت بهو قصورها فهدأت نفسها وسكنت روحها

ومع آخررشفة من فنجان قهوتها ابتسمت برضا ويقين في وعد ربها.
وضعت الفنجان أمامها فإذا بيد تمتد وتحمله بعيداً وتمسك بيديها المرتعشتين، وتضمهما بقوة في محاولة لتهدئتها كم تمنت أن يقف الكون ويصمت حتى تستمتع بشجو صوته العذب يعتذر لها ويقبّل يديها ، ارتسمت ابتسامة خجلى على شفتيها وهو يمسك بحقائبها ويكفكف دموعها ..

وتتدفق الحياة في عروقها من جديد.

-٩-

رفيق

حزنت وانهارت من فقده، بكته طويلًا فهي لا تدري كيف ستعيش بدونه؟

حينما تفتح عينيها من ستطالع؟ من سيخبرها بكل الحكايات وتفاصيل الأحداث؟ مع من ستلهو وتمضي وقتًا مبهجًا؟ مع من ستحزن ويعتصر الألم قلبها؟

ذكرياتها معه كثيرة، ولياليها من بعده طويلة، كم احتضنته بيديها في عناق طويل، رأت فيه ضجيج الطريق، رائحة التربة، وجوه المارة ..

لكل وجه حكاية ذات طابع خاص وذكرى مختلفة، حكايات عامرة، أحلام رائعة، لحظات ثرية بتفاصيلها، مضيئة بعبقها، أظلمت بضياعه.

ذبلت وشحب وجهها و أصاب جسدها الوهن وطال نحيبها. وحينما أحس زوجها بألمها وأدرك مصابها، حاول إرضائها وأراد إدخال السرور على قلبها، فدعاها لنزهة وقدم لها هدية.

توقف قلبها حين فتحت العلبة ورأته ...

إنه "هاتف نقال" جديد

-١٠-

الشيخة فرحات

كانت الصورة على الجدار تعكس هيبة صاحبها قويًا حازمًا يرتعد الجميع حين يسمع صوته فهو كبير القرية صاحب المشورة والمكانة المرموقة، يملك السطوة والنفوذ، يخشاه الجميع ويهابه الكبير والصغير، شخصيته الطاغية تجعل نظرة واحدة من عينيه الحادتين كفيلة بأن تجعل الرجال يتسمّرون في أماكنهم ..

نظرت إليها بحزن وكأنها تشاهد فيلمًا سينمائيًا مرّت الذكريات أمام عينيها في مشهد مهيب، في منزل فخم يختلف عن باقي منازل أهل القرية الفقراء، أرقى من منزل العمدة وشيخ البلد، ففيه تُعقد الاجتماعات، هو مكان الحل والعقد، البيع والشراء، مجالس الصلح، الزواج ..

لا شيء يتم إلا لدى الشيخ فرحات، يؤم المصلين في صلاة الجمعة يلقي خطبته ويعطي درس الأربعاء، يزوج الشباب ويفصل في المنازعات، تُقدم الشكاوى له ويقوم بدور القاضي يحكم بين الناس في الخلافات.

كانت تحاول أن تلمس بعينيها ما يختبئ خلف تقاسيم وجهه، تتحسسها كمن يلمس جناح فراشة يخشى عليها التلاشي والضياع، تأكدت أنها أمام صورته بلمسة حانية لم تدر أشفقة هي أم لوم وعتاب؟!، حيث يتوارى الموات هناك رقدت جثته بينما ما صنعه بقي حيًا والشاهد هي "الشيخة فرحات" .. كما لقّبها أهل القرية

كانت الشمس تطبع أولى قبلاتها على القرية عبر الحقول الواسعة، وسنابل القمح تمتد بلونها الذهبي الرائع على الأرضي الزراعية تتمايل مع نسمات الهواء كلوحة فنية بديعة من صنع الخالق -سبحانه وتعإلى-، تجربتها

قاسية لكنها أحبت اللعبة وغرقت فيها حتى النخاع، تقمّصت دور البطل بكل شغف، انغلقت إرادتها وتواطأت عليها كل الأحداث فزادت وحشتها وأصبحت كمهرة أفلت لجامها، وكانت مقيدة بألف قيد، دوامات ألم لا تقوى على احتماله تكتم صرخاتها في أنَّات مكتومة، تستعيد مشاهد من حياتها قابعة في ركن خفي من ذاكرتها، تستثيرها فتنهال عليها وتتدفق مؤججة مشاعرها، أنهكتها الذكريات وأعياها طول الصبر والأمل، ولكنها تعود إلى واقعها فتغرق في ليل مظلم كئيب.

أب حلمه أن يكون له ولد يرث الأرض ويتولى زمام الأمور، وبعد أعوام من الانتظار جاءت هدى -كما أسمتها أمها- صُدم الشيخ فرحات ونقم عليها وعلى والدتها التي لم تعش طويلًا، رحلت بعد ثلاثة أعوام كانوا أجمل ما في عمرها بل كل عمرها ..

لم تشعر قط أنها صغيرة فقد وُلدت عجوزًا

أب قاسٍ غليظ لا همَّ له سوى جمع المال، كلما رآها تحسر على حظه وتمتم بكلمات الخيبة والندامة، بينما هي تريد أن تصرخ: لست عارًا ،ولا سُبَّة يحق لك أن تفخر بي، ومما زاد ألمها ابتعاد الجميع عنها، قريناتها يلعبن يمرحن يتجاذبن أطراف الحديث، بينما هي محرم عليها كل شيء اللعب، اللهو، حاولت الاقتراب منهن، لم تجد سوى الصد، كن يخفنها كسائر أهل القرية، بعضهم يبتعد عنها مهابة والبعض خوفًا، لم تدر ما سر هذا الخوف حتى سمعت ذات مرة حوارًا دار بين والدها وعمدة القرية.

لم تتلصص بل وصل إلى غرفتها صوت شجارهما لم تدرك مغزى الحوار ولكن ما فهمته ان والدها فاسد جشع يتآمر مع عمدة القرية ليسرق أقوات الفلاحين

أهل القرية بسطاء سحقهم الفقر والمرض بينما يطاردهم هو وزبانيته ليمتصوا ما تبقى من دمائهم طمعًا في المزيد من المال، ويزداد حنقها على الجميع، وكانت جملة والدها ترن في أذنها كل لحظة اعتاد تكرارها في نهاية كل حديث: "ربنا رزقني ببت، اومال مين هيورث المال والطين دا كله حكمتك يارب"

وتمر الأيام وتكبُر هدى .. هدى لم يناداها أحد بهدى سوى والدتها وابن خالتها إبراهيم الذى أحبها في صمت مشاعرها تجاهه فكانت كأرض بكر أصابت عذب مطر فأثمرت وأينعت، قلبها يرقص حين تراه وتتهلل أساريرها، ترتبك وتتلعثم الكلمات على شفتيها حين يحادثها ويرتجف جسدها ولكن كالعادة الأمنيات عليها مستحيلة

حين تشجع خالها وطلب يدها من الشيخ فرحات لابنه إبراهيم ثار الشيخ واتهمهم بالطمع في ماله وأرضه وطرده شر طردة.

تحطَّم قلبها قبل أن يعرف معنى الفرحة، ذُبح حلمها قبل أن ينضُج ويكتمل ازداد شحوبها وطال نحيبها وغدا قلبها مقبرة أزهقت على أعتابها أمنيات بكر، وابتعد ابراهيم بأمر والده الذي خاف عليه بطش الشيخ فرحات فسافر بعيدًا وعلمت فيما بعد أنه استقر وتزوج وأنجب فغلف قلبها حائط من الجليد صعب الذوبان

نقمت على كل شيء حولها .. والدها ... ماله... أرضه ... نفوذه ... أهل القرية.

تجبرت كما تجبر والدها، ارتدت ثياب القسوة وكم كانت سعادته وهو
يراها تسير على خطاه، شهد ميلاد طاغية ستتولى العرش بعده كما كان

يتمنى وبدا يشجعها ويحفزها، وأعلن للجميع أن ابنته ستتولى الأمر من بعده حتى
اذا أتاه المرض كان يجلسها مكانه في مجالس الكبار بينما هو مطأطئ الرأس لها معلنًا
الانصياع والإذعان لكبيرة القرية الشيخة فرحات، أزاحت رأسها للوراء وكأنها تنفض
عنها الذكريات التي تطاردها، وسمعت صوتًا كان غائبًا عنها .. إنه صوت إبراهيم

استدارت وقد دارت بها الدنيا تكاد تسقط على الأرض ولا تقوى قدماها على حملها،
اقترب اكثر وحيَّاها واستجمعت قواها وبادلته التحية بينما نظرات والدها في صورته
على الجدار تمزقها، استعادت رباطة جأشها واستقبلته بابتسامة باهتة

بينما مشاعرها متضاربة فرح، لوم، حسرة، شوق، ماهذا أين هيبتي ووقاري؟ رجل
يفعل بي ذلك؟

لا .. وانتفضت واقفة كالجبال الشم وتمتمت: كيف حالك يا إبراهيم؟

رد عليها: الحمدلله، كيف حالك أنتِ ياهدى؟

وهنا توقف الكون وخيَّم الصمت، هدى ..لقد نَسِيَت أن اسمها هدى!

رفعت رأسها في حزم رغم ألم يمزق أحشائها، لتقاطع حديثه وتخرس صوته، ولكن لا
مجال للتراجع لقد عُجن قلبها بالقسوة في عالم لا يعرف الرحمة، صار ت كالصخر،
وبادرته بتحدٍ: الشيخة فرحات يا إبراهيم

وكأنها تهرب منه ومن نظراته استدارت سريعًا وجلست على مقعد الحكم .. عندك
مشكلة ؟؟ المجلس سيُعقد حالًا

دعت الجميع للدخول وبدأ مجلس الشيخة فرحات يشهد جولة اخرى في صراع لن
ينتهي.

- ١١ -

معاً

نظر إليها وقد استشاط غضبًا ثم قال: دعيني لا أريد أن أراكِ قد مَلَلْتُكِ سئمتُ منكِ .. ابتعدي عني فارقيني اختفي من حياتي

وأشاح بوجهه بعيدًا عنها ولم تستطع أن تتفوه من هول المفاجاة صمتت كثيرًا

ثم استشرفت جبينه وهمست في إشفاق أتريدني أن أتركك .. لِمَ؟

من كان معك كظلك على كل حال؟

ألم اقاسمك الأفراح والأتراح؟

ألم أظل بجوارك ولم أفارقك وشاركتك ذكريات وأمنيات؟

ألست أنا من تبسَّمت لابتسامك وانكمشت حزنًا في ألمك؟

ألست أنا من حملت دموعك بين يدي؟

أتذكر حينما فرحت بنجاح ابنك؟ حينما حصلت على ترقيتك في عملك؟

وفي زفاف ابنتك ألم تترقرق دمعة في عينيك لم يرها أحد سواي؟

وفي سفرك وفي مرضك ألم اكن معك؟

فانتفض بعنفوان شباب ولَّى ومضى ثم نظر إليها مجددًا ولكن بعرفان وامتنان هذه المرة، تفحصها مدَّ يده ولامسها وتحسَّسها

وهي لن تتركه أيضًا

لقد كنّا معًا .. وبقينا معًا .. وسنظل معًا

أعاد النظر مجددًا في المرآة

إنها علامات الزمن .. إنها تجاعيد وجهه

– ١٢ –

شيخ الغفر

يُحكى أنه في بلاد بعيدة قرية صغيرة، كان هناك فتاة جميلة من عائلة نبيلة، بالأدب معروفة وبحسن الخلق مشهورة، يشهد الجميع بأصل عائلتها، وعلو منزلتها.

وكان شيخ الغفر رجلًا قاسيًا مستبدًّا، مهووسًا بجمع المال والنساء، رمى شباكه حول الفتاة، يُمنِّى عائلتها بالسطوة والنفوذ فتبعه منهم كل متعوس.

ولكن شباب العائلة اجتمعوا وعلى تحصين الفتاة اتفقوا، فقد تعبوا من اللوم وأشبعهم استهزاء القوم، فقد طال بها الحال وعزف عنها الرجال، .فثاروا على شيخ الغفر وهدّدوه بعدم التعرض لفتاتهم، وتركِها تختار بين الخاطبين.

وتقدَّم لها رجل وقور بالصلاح معروف وبالتواضع مشهور، يشهد له الجميع بحسن السمعة والسيرة، يحفظ القرآن الكريم أرادها له حليلة يعفُّها عن كل رزيلة، ويحافظ عليها من الطامعين، يصونها ويحميها من الغادرين.

لكن شيخ الغفر أحسَّ بالغيظ، واجتمع بغفره يدبر المكائد ويستعين بكل حاقد حاسد

وبعد أن لفَّق التهم للرجل حبسه في القفص وأخذ يؤلف القصص،

ويُخوِّف أهل القرية ويرعبهم من شبح سيفترسهم، وأخذ يعتقل شباب العائلة ويُشرِّد رجالها ويستحيى نسائها.

ففرّ من فرّ وعصف الحزن بالفتاة واجترّ، حتى أصبحت هزيلة ولم يكن لها أي حيلة

فقام شيخ الغفر بإذلالها وشكَّك الجميع في سلوكها، فأغلقت الأبواب في وجهها،

وهنا تمكَّن منها شيخ الغفر وجعلها تحت يده تُباع وتُشترى وصارت الحرة عاهرة، وانتشرالحديث بين القرى فأصبحت سيرة القرية غابرة.

ووصل بهم الحال أن عزفوا عن التجارة معهم، وصارت قرية منبوذة، بالرزيلة معروفة، فحطّ عليها كل لئيم وسكنها كل زميم، فأنزل الله عليها البلاء والوباء والغلاء فأقفرت الحقول، وجفَّت الأنهار والضروع، وداهمتها السيول وأغرقت البيوت وأصاب الجميع العَجَب وصار يسأل عن السبب!

كيف كانت قرية غنَّاءً أمسًا وكيف أُصيبت بالشّقاء والتَّعس؟

- ١٣ -

سارة

لم تستطع أن تخفي نظرة شفقة ألقتها عليه قبل أن ترحل، وتغلق بابًا ما عاد يُفتح أوصده هو بعنفه وقسوته، فكل زاوية تشهد عليه كم مرة ضربها حتى فقدت الوعي

وكم مرة أهانها ومزّق كبرياءها، كم مرة نزف قلبها قبل جسدها حتى أنها صارت تختبئ منه حينما يفقد السيطرة على نفسه، وتفيق على تهدجات صوته وهو يبكي ويُقبّل يديها وقدميها طالبًا منها أن تسامحه، ألا تتركه وحيدًا، يستجدي بقاءها بينما روحها رحلت بعيدًا عنه، حتى دموعه لم تفلح في إذابة الجليد الذي زرعه في قلبها رغم حرارتها.. وككل صباح تستيقظ لتركب نفس الرَّحى لتدور معها، وتتجمهر آلامها وخيباتها وتهاجمها ذكرياتها بقسوة، فصارت تستمتع بضعفها للحظات، سلسلة من القسوة والعذاب تعيش فيها وتنتهي بدموع تملأ وسادتها كل ليلة حتى صارتا كخلَّيْن أليفَيْن، ولكن هذه المرة حينما عادت من المشفى وكانت بين الحياة والموت لم تستطع أن تغفر له، بعد أن عثرت على حبوب الهلوسة في أحد أدراجه وحينما واجهته وطلبت منه أن يبدأ في العلاج، فقد عقله تمامًا وتحوّل إلى وحش كاسر يلاحقها بضربات موجعة حتى سقطت مغشيًا عليها وانزوى هو في ركن مظلم يبكي لم ينقذها سوى رنين الهاتف وصوت أمها يأتي من بعيد ..... سااااااارة

ومــرّت ذكرياتهــا متلاحقــة تــركض في جنــون أمــام عينيهــا ..
في منـزل صـغير لم تجـد فيـه الـدفء المنـشود، تقتلـها التفاصـيل، فتحصد سنابل أحزانها من بقايا الأنين، ألم يمزق أحشاءها، فحياتها أحجية تحار في فهمها ..

أُم تمنح كل مشاعرها لأختها بحجة أنها ضعيفة البنيـة غـير عابئـة بهـا وبأوجاعها، وأب يُفضِّل الذكورعلى الإناث يلجمهن بنعت بنت أي ضـعف وهوان، مبررًا التمييز، يعطيهم الحرية كاملة ويغدق عليهم مـن مـشاعره مـا يبخل به على ابنته!

حتى أُصيبت سارة باضطرابات نفسية جعلتها تتبول لا إراديًا، فكم عانقت كل ليلة طيف الموت وتـدثرت بـرداء القهـر، دُفـن نبـضها وانـدثرعبقها .. فذبلت وشحب وجهها وكتمـت أنينهـا لم تنتبـه الأسـرة لهـا ولم تحـاول علاجها فكانت ترى الظلم البيّن في كل شيء حولها حتى كرهـت الجـدران قبل البشر، وتمنّت أن ترحل منه سريعًا وبالفعل وافقت على أول من تقدَّم لها ..

قريب لهم يكبرها وسبق له الزواج، ولكنها أرادت الفرار ولم تدرك أنها تفر من نار الأهل إلى جحيم الزوج.

وأثمرت فكرتها عن لقب "مطلقة" ستحمله لزيجة لم تستمر سوى ستة أشهر وعـروس لم تتجـاوز الخامـسة والعـشرين مـن عمرهـا، استـشرت الآلام في حواسها دفعة واحدة بين ضجيج الأوجاع ونزق الخذلان ..

مسحت دمعة ملتهبة سقطت على وجنتيها ونفضت رأسـها وكأنهـا تـنفض ذكرياتها، وأغلقت الباب ورحلت ..

- ١٤ -

رسالة

أمسك برسالتها يتلمس حروفها، يستنشق عبيرها، يضمها إلى صدره عله يهدأ، وحنين كأزيزالمرجل يغلي بأعماقه ..

كلما تذكر ابتسامتها العذبة، وعيونها المتلألئة، وضع الرسالة الصغيرة ذات الحروف القليلة بين حدقتيه وقد رسم القهر عنوانًا هناك ..

منعوه عن صغاره فلا يستطيع عناقهم، حرموه من دنياه، شوقًا كابدَه، قلوب متناثرة في الرسالة تجعل قلبه يقفز من مكانه، سقطت عبراته ممتزجة برجفة في أوصاله الباردة وجسده النحيل ..

فليالي السجن طويلة وباردة؛ تمر أحلام وذكريات، طموحات وأمنيات، لكن ذلك الباب الحديدي هو منتهاها

ما تلبث أن تتعانق وتتشابك لتصير نقطة إحداثياتها صمت وسكون، أما النحيب فصار جزءًا من حروف القهر في رسالتها خلف القضبان

أغلقوا عليه أبواب الزنزانة فصار عزاؤه رسالة صغيرة يقرؤها كل يوم مئات المرات ..

– ١٥ –

رحيل

انتفضت من فراشها، تحاول تنظيم ضربات قلبها التي تسارعت في جنون

حاولت أن تصرخ أن تبكي دون جدوى.

دقات قلبها تكاد تصم أذنيها . . رفعت جسدها النحيل بصعوبة وصوت تنفسها

المتقطع يتزايد.. تريد أن تأخذ نفسًا عميقًا .. لا تقوى على استجماع ذاتها.

كأن ثقلًا يجثو على صدرها .. تتمعن في الوجوه حولها فترى بعضها شاردًا

وبعضها صامتًا وبعضها باكيًا.

تحيط بها الهمسات والهمهمات .. ما هذا؟!!!

كانت قد وضعت إسدال الصلاة هناك وبجواره مصحفها ومسبحتها وها هو

قلمها وأوراقها تُدوِّن خواطرها.. تكتب أمنياتها.. أحلامها.. آمالها ..تراها

تستطيع أن تمسك مصحفها أن ترتدي إسدالها لتقيم الصلاة فقد حان موعدها..

ولكنها لم تستطع .. جلست ابنتها عند رأسها، تساقطت دموعها بينما دخل زوجها الغرفة ودنا منها قبّلها قبلة حزينة على جبينها.

طرقت الباب سيدة وقور هادئة الملامح تحمل حقيبة وأشارت للجميع أن ينصرفوا..

فتحت حقيبتها أخرجت أدواتها.. وقماشًا أبيضًا.. وتمتمت بالذكر والدعاء.

وما إن رأت القماش الأبيض حتى أدركت أنها رحلت.

لن تتم وردها لن تكمل أذكارها.. لن تُدوِّن خواطرها لن تأخذ ابنتها في حضنها

حاولت التشبث بالحياة ولكن الحياة رحلت وتركتها

إنه .. الرحيل الأخير.

-١٦-

دمية

نظرت في وجوه من حولها تستجمع ذاكرتها تحاول أن تتذكرهم

أمسكت دميتها الصغيرة فهي آخر ما عَلِقَ في ذهنها من الماضي

هى أنيستها في وحدتها بعد أن رحل الجميع

كانت تستجمع حروف العجز بين شفتيها فلا تستطيع النطق

تستجدي عطفهم، ابن سافر بعيدًا وأخ هنا وأخت هناك

تمسك هاتفها تبحث عن الدفء بين أرقامه علها تجد الأمان.

فتأتيها رسالة وحيدة مقتضبة بصوت جامد لا حياة فيه:

عفوًا لقد نفذ رصيدكم

سنوات مرت ولا تعي معنى الرسالة منذ أودعوها دار رعاية المسنين

لم تحتفظ بشيء لا أرقام هواتف .. لا عناوين ... لا أسماء .... لا أحداث

لا ذكريات سوى... دمية حفيدتها

– ١٧ –

تاجر

تعالت أصوات الزغاريد والتبريكات

تنهَّدت وهي تغلق الأبواب وتوصد النوافذ

إنه عُرس جارتها، تلك الصغيرة التي كانت تناديها "طنط" منذ أيام قليلة.

سندت رأسها وتذكرت حينما أتاها خاطب وفي جلسة مع أبيها انتفض وخرج لاعنًا الزواج ومن تزوجوا ..

لقد كان الأب تاجرًا لا يعرف سوى لغة المال ولا يجيد سوى البيع والشراء

واستمر هكذا .. عريس تلو الآخر حتى عزف عنها الرجال، ورحل الأب تاركًا بضاعته التي بارت، تمزقها سياط ألسنة الناس.

– ١٨ –

الدكتورة

اتسعت خطاها في محاولة للابتعاد عن المكان، ألقت بنفسها على مقعد القيادة في عربتها الفارهة، وضعت رأسها على المقود، تخبئ عينيها المتلئتين بالدموع

واسترجعت شريط ذكرياتها كم كان يحبها واكتمل حبهما بخطبة وفرحة غامرةوحينما رشحتها الجامعة لاستكمال الدراسة بالخارج، رقصت من الفرحة ولم تأبه لحبها

رفض خطيبها أمر السفر فتنازلت عنه بكل سهولة

سافرت، درست، عملت، حصلت على أعلى الشهادات وأصبح رصيدها في البنك مكتظًا

كانت ذكراه تقتحم حياتها، حبه لها، قلبه النقي، إخلاصه، التزامه، ولكنها ضحت بكل شيء.

شق صوته الصمت المتغلغل في المكان معلنًا عن ميلاد جرح قديم ..

رحب بها ولكنها حين رأته تسمرت ولم تسمع سوى أنفاسه، غابت عن الوعي لحظات وأفاقت على صوت صديقتها مرحبة بها وحولها الصغار

إنهم أبناؤها... أبناؤه .... أبناؤهما...

لقد عادت .. لكنها وجدته زوجًا وأبًا

أما هي فصارت وحيدة تحمل لقب الدكتورة!

- ١٩ -

الدرج

كانت مشرقة كشمس النهار كحلم وردي، تفيض حبًّا على من حولها، تعتني بأم زوجها القعيدة وتُلبّي طلباتها، تصلح بين إخوة زوجها وزوجاتهم، تدربهن على العطاء، تتفنن في مودة الجميع حتى كسبت زينة ثقتهم قبل حبهم.

أما عن زوجها فهو أميرها، أسلمته شراع سفينتها فكان ربانها، تتفقد أمره كأم حانية، تنير حياته بمرحها وبهجتها، تملأ قلبه دفئًا بحبها وأنوثتها.

كان يحبها منذ الطفولة فهي جارتهم، وحينما تقدم لها خاطبًا، رقصت عيناها فرحًا، وتم الزواج ..

تمرالسنون ولا تنجب، يبدأ الهمس ثم الغمز واللمز،

كانت أمه سيدة ريفية تخشى على الأرض والمال تصحو وتنام تردد نفس السؤال: "ها؟! مفيش حاجة جاية فالسكة؟" .. تناديها بالعاقر وتنعتها بالأرض البور.

كم بكت ليالي طويلة، سجدت ودعت ربها أن يرزقها الذرية الصالحة، وفاض كيل الأم وبدأت تلح على ابنها في الزواج، فيتذمر الابن ويتشاجرمع والدته مرة ومرات

لكن زينة تأبى إلا أن تكون بلسم جراح، وحمامة سلام في الأسرة ..

وفي إحدى المشاجرات علا صوته على أمه وعنفها بقسوة بعد أن طلبت منه أن يطلقها فلا أمل منها وهي تريد ولدًا يرث المال والأرض يحمل اسم العائلة يصيرسنده ووتده.

أحست بالعجز والقهر بعد أن ذهبت إلى الأطباء فأكدوا سلامتها وطلبوا فحص الزوج وعندها ثارت الأم والزوج معًا ورفضا رفضًا قاطعًا

فالرجل عندهم كامل غيرمنقوص أما العيب فمن نصيبها هي!

ولأن حبها له بعض إيمانها آثرت ألا تكون سببًا في عقوق زوجها

جمعت ملابسها ورحلت في صمت وطلبت منه طلاقًا كريمًا يحفظ احترامها له، ولأنه أحبها بصدق لم يزد جرحها وإيلامها أكثر من ذلك ..

طلقها وتزوج بأخرى ما إن دخلت المنزل حتى أشعلت فيه الحرائق

توقع بين هذا وذاك، تعادي هذه، تغتاب تلك.

حتى الأم التي كانت مكرمة أهانتها وأوغرت صدرابنها عليها وتأففت من خدمتها، حتى أودعها عند أخته بعد مشاجرة حامية سمع بها القاصي والداني، فصارت حياته باردة جافة.

ويلتقي بحبيبة قلبه وقرة عينه تصعد الدرج، إنها المرة الأولى التي يراها بعدما تزوج وعلم أنها تزوجت بعد فترة، يقف قليلًا مشدوهًا بينما هي تحمل طفلًا صغيرًا على ذراعها وزوجها يمسك بها

هبط الدرج وتهبط معه أمنياته وأحلامه وشعور بأنه يهوي إلى سحيق منتهاه قبر، وتسارع زوجته في اللحاق به مقرعة إياه نادبة حظها وزواجها منه ولا أمل في الإنجاب.

كان الدرج طويلًا حتى ظن أنه لن ينتهي شاهدًا على حب وُلد وجراح لن تموت.

– ٢٠ –

التوءم

ابتسمت وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، تمشط شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، وفي عينيها نظرة انتصار خبيثة

شقيقتها التوءم نصف روحها، شطر قلبها، تلك البريئة الطاهرة محط إعجاب الجميع،

يغدقون عليها الحب والاهتمام لرقتها وطيبتها

بينما هي العنيدة، الحقود، الأنانية، مشاغبة حد الصفاقة، متمردة حد العصيان، تتحمل كل أوزار الكون

لا أحد يهتم بها، كم تجرعت الألم وقاست العذاب بمعاملتهم لها وكان الحب والحنان من نصيب شقيقتها، مما جعلها تفكر في التخلص منها ماذا تفعل؟!

أتقتلها وترتاح؟ أصبح هاجسًا مخيفًا يملأ وجدانها، داهمتها أفكار سوداء، وقلبها صار ينبض حقدًا.

فرفعت راية الحرب عليها بما أتيح لها من وسائل رخيصة وأساليب حقيرة، ونسجت الغيمات كفنًا للرحمة، وملأت نفسها غلًا وحنقًا على الجميع، فأعلنت الانتقام وانساقت إلى نزق الكراهية ..

صارت تفتعل المكائد لأختها، تضعها في بوتقة الظلم والاضطهاد

تدبر لها الحيل فتقع فريسة لحبائلها وتمتزج عبراتها بلوم المحيطين

بها، فمرة سارقة، ومرة مستهترة، ومرة مهملة، ومرات كاذبة.

حتى أصيبت الفتاة بمرض نفسي أفقدها القدرة على النطق وانتهى بها الأمر في مصحة نفسية

عمق جراحها ألجم نبرات صوتها فمدت جذور الصمت في جنبات نفسها

تجربة مريرة قاستها مع شقيقتها حاولت أن تتجنبها... تستعطفها أحيانًا لتدعها، ولكن دون جدوى، تزداد في قساوتها، وبات ظلمهم حملًا ثقيلًا على لسانها وماتت كل دفاعاتها... انتحرت الكلمات على مقصلة القسوة، فلم تحتمل ظلمهم وشكهم وتربصهم الدائم بها وآثرت الصمت شفقة على نفسها

بينما الأخت هي من تحتاج علاجًا لعضالها ..

- ٢١ -

إنـه هو

جلست أنتظر دوري في عيادة الأسنان، إنها آلام وأوجـاع ليـست في ضروسي فقط بل في قلبي، دخلت فتاة متشحة بالسواد، صغيرة السن ترتسم على وجـهها هموم كهل وفي يدها طفلة صغيرة ووراؤهم سيدة عجوز، سرعان ما ملأت الطفلة المكان صـخبًا وضـجيجًا .. واقـترب دوري، فطلبـت مـني الجـدة أن تـدخل الفتـاة لأنهـا لا تستطيع تحمل الألم وافقت على مضض ،وجلست أداعب الطفلـة الصغيرة، وبعـد امتنانهـا جلـست الجـدة إلى جـواري في حميميـة تروي لي قصة ابنتها التي فقدت زوجها من أشهر قليلة تاركًا لها ثلاثة أطفال، تعاطفتُ معها وخاصة حين علمت أنهـا بـلا مـورد رزق وتعلقت نظرات الطفلة بـي حـين داعبتهـا، ومـضوا جميعـا وصورة الفتاة المكلومة في زوجها لا تفارقني.

ومرت الشهور وذهبت مع ابنتي للتسوق فهي في انتظار مولودهـا الأول، ومر وقت طويل من متجـر لآخـر وشـعرت بالإعيـاء وعـدم القدرة على التنفس، خرجت استنـشق بعـض الهـواء وسـرحت في عمرمضى وطموحـات وأمنيـات طُويـت وآلام وآمـال مـرت .. كـم جاهدت واجتهدت حتى أكون زوجة صالحة وأمًا حنونًا؟!

وقطع صمت المكان صوت سيارة تقف أمام المتجر .. ما هـذا إنهـا الفتاة المتشحة بالسواد تنزل من السيارة، لقد تبـدلت؛ أصـبحت أكثر إشراقًا وضحكة تملأ وجنتيها،وسارعت تمسك بقوة بيد رجل وكأنها تخاف أن تفقده

وتلاقت نظراتنا ..

وكأن الكون توقف فجأة لم أعد أسمع أو أرى شيءا، وكأن إعصارًا لفني بقوة عجيبة ما بين صرخة مكتومة في أعماقي ودمعة جفت في مقلتي، ومرا بجانبي ..

وأفقت على نظرة متخاذلة أراها على وجهه لأول مـرة في حياتي ....

إنه هو .... نعم إنه ....

إنه....

إنه زوجي

– ٢٢ –

صبرت ورُزقت

ملأت الدموع عينيها وغطت وجهها، أهي في حلم أم في كابوس رهيب؟ تراهم يمزحون معها مزحة ثقيلة؟ وكأن الزمن توقف فجأة، لاحياة، لا بشر، صمت يغلف كل شيء، قطعه صوت يردد باتزان: تريث يا ولدي إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

وشعرت بغصة في حلقها، صرخاتها المكتومة صدعت الجدران، وتشققت أنفاسها فسرت رجفة في جسدها، تتأرجح مشاعرها بين الثورة والندم تتجرع الكلمة وتخفي مرارتها ولا تطيق ألمها، تحاول استجماع ذاتها.

الطلاق !! ياإلهي! أيُطلقها ويتركها وحيدة، أيمحي سبع سنوات من عمرها بكلمة! سبع سنوات بآلامهم، وآمالهم، وأوجاعهم، ثلاث منهم كانا كأسعد زوجين، وثلاث تلتهم يدوران في فلك الأطباء يبحثان عن أمل في طفل يملأ حياتهما، وعام كله وجع وألم ومشاحنات صنعت منه رجلًا قاسيًا باردًا، لينهي وجودها معه بكلمة، فما هي جريمتها وما هو ذنبها؟!

لم تنجب له طفلًا، لقد حاولت، وجاهدت واجتهدت، لكن لم تستطع أن تحقق حلمه وحلمها.

وأردف الشيخ قائلًا : راجع نفسك يا بني، فأشاح بوجهه ونظرغيربعيد، ثم عاد ببصره ونظر إليها وبصوت تجمدت ملامحه من برودته قال لها : أنتِ طالق

فارتجفت وارتعشت لصدى صوت الكلمة الذي يتردد بين جنباتها.

واستفاقت من شرودها على صوت محبب لها ينبهها : نحن ننتظرك يا أمي

واقترب منها وقبّل جبينها، وبابتسامة الرضى قبّلته فهو أصغر أبنائها وهذه حفلة تخرجه من الجامعة وحان وقت الذهاب

نعم رزقها اللّه البنين والبنات بعد طلاقها وارتباطها برجل آخر، ولم يضيعها لأنها صبرت ورضيت فمنَّ عليها بزوج عطوف وأبناء ملئوا حياتها بهجة وسعادة ورضى.

– ٢٣ –

صفوان

كان شابًا تقيًا نقيًا، يسيرعلى خطى صاحبه فهو قائده وقدوته، في صلاته، قيامه، تلاوته، يتفقده يراقبه، ويلازمه، حتى في الترحال معه كظله

وتمر الأيام وتحدث الطامة الكبرى يتهمونه ظلمًا وبهتانًا في عرضه، في شرفه.

وفيمن؟؟ زوجة صاحبه!!!!!

هو يعلم أن الموقف عصيب عليها وأشد على زوجها وهم أهل الطهر والعفاف

أما هو فكان يفرمن العيون التي تحمل ألف سؤال وسؤال ومن قبلهم اتهام واحتقار.. فكانت حيلته الهروب ووسيلته الصمت كيف يتهمونها وهي الكريمة ابنة الأكرمين، وهي الكاملة التي يشهد لها القاصي والداني ..

انزوى بعيدًا لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، وينتظر صاحبه وتوقع أن يكيل له الاتهامات أو أن يقتله، ولكن صاحبه حين يسأل يجيب بما يشفي صدره ويقول: والله ما علمت عليه سوءًا قط. حنانيك يا صديق عمري وصاحب رحلتي، مازلت تذكرني

بالخير، يعلم ربي أني لم أخنك، ولم أغدر بك بل هو لسان كذب وافتراء.

وينتظرالجميع .... زوج اتُهمت زوجته في عرضها ولاكت الألسن شرفها، مع صاحبه وصديقه

وتضيق الصدور وتئن الطاهرة العفيفة ماذا تفعل وقد أساء الظن بها زوجها وقرة عينها، لم يفصح ولكنه صمت، صمته طعنها ومزّق قلبها فآثرت الرحيل إلى بيت أبيها.

وتمرالأيام ما أصعبها، وتبلغ القلوب الحناجر وتنكشف الغمة بقرآن يُتلى إلى يوم الدين تنزل براءتهم من فوق سبع سماوات على لسان الصادق الأمين، وتعم الفرحة أرجاء المدينة

براءة الشاب الورع الذى شهد الخندق وكل المشاهد مع الرسول وكان يسير في ساقة الجيش ..

كنيته أبوعمرو، وفي غزوة بني المصطلق كانت حادثة الإفك

وبطلها صفوان بن المعطل السلمي -رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله-

- ٢٤ -

حسرة

أرسل زفرة ندم، بينما شقت دمعة حزينة طريقها على وجنتيه بين ثنايا الألم.

احترق قلبها شفقة عليه، تُرى ماذا يبكيه؟!! فما يحصده الآن ما هو إلا غرس الماضي.

لقد رأت تلك الكسرة في عينيه حينما مرضت أمها، رأت الحسرة والألم على رفيقة لم تر منه سوى العذاب، سقاها المر كؤوسًا وأكوابًا، كانت تتحدى الجميع تمنحه الفرصة تلو الأخرى علـه يستفيق! كانت تتسامح، تغفر، تتساهل، وأحيانًا تتغافل عن أخطائه وخطاياه.

تدعو له بالصلاح والهداية، فحفظ الله دعوتها في أبنائها وعصمهم لطفًا بها،كانت تبحث في أعماقها عن بقعة مضيئة تنفذ من خلالها لتراه علها تحبه ولكنها كلما توغلت كلما أرتطمت بأشواك الماضي فتدميها الذكريات، كيف حفظ الله الأبناء تُراها دعوة صادقة من شخص صالح أم أنها مضغة تئن شوقًا للطهر والنقاء كبرت فأثمرت قلبًا يحركه الخضوع إلى الله والرجوع إليه بالتوبة والاستغفار.

ولكن ما زاد جراحها طعنًا شعورها بأنها تبره خوفًا من عقاب الله، وليس حبًّا فيه ..

ذكرياتها تركض في جنون، لا تعطيها مجالًا للتسامح أو المغفرة

جنوحه وتهوره بل انحرافه ومعاصيه ألزموه أنانية سلمته إلى سجن الخطيئة.

تركه الجميع ورحلوا في صمت غير آسفين بينما هي تكابد شقاءها الأزلي وأب مكسورالجناح.

– ٢٥ –

الجدران الباردة

لا صوت حوله سوى الصراخ، وحين يهدأ الصراخ قليلًا يكون الاستعداد لجولة أخرى أكثر وحشية من العراك والشجار، يصحو على صوت تحطم الأثاث أو الأطباق والأواني، وصراخ الأم، وسباب الأب وينام على نفس الأصوات حتى انتهى العراك ذات مرة بجملة متهورة كانت رصاصة الرحمة التي أصابت علاقة مهترئة لا أمل في إصلاحها : "أنت طالق"

أغمض وليد عينيه علّه ينسى تلك الذكريات المؤلمة في منزل بسيط عاش وليد طفولة حزينة، جدران المنزل باردة لا دفء ولاحنان وجد نفسه مكروهًا من الجميع إن أخطأ تقرعه أمه وتنسبه إلى أبيه وأنه يشبهه في كل شيء حتى سلوكياته، تقاسيم وجهه تذكرها به وبما يفعله بها يريد أن يرمي نفسه في حضنها وينهل من عطفها فلا يجد سوى القسوة تبعده عنها بقوة "روح لابوك ما أنت شبهه"

وهكذا في كل مرة حتى جفّ الحب في عروقه ولم يثمر أبدًا، أما الأب فمشاعره متأرجحة تجاهه أحيانًا يشعر أنه يحبه و حينما يأخذه في جولة تاركًا المنزل لزوجته بجملة سمعتها كثيرًا "أنا واخد ابنى وخارج سايبلك البيت متطربق على دماغك" لم يدرك أنها

كانت حيلة لإغاظتها وإوجاعها أكثر وأكثر وفي بعض المشادات كان يضرب الصغير إمعانًا في الانتقام منها، كبر وليد قليلًا ولم يدرك سر هذا العداء الرهيب بينهما يحاول أن يجد مبررًا واحدًا ..

سمية الأم على قدرٍ من الجمال تزوجت بياسر الشاب الوسيم صاحب العلاقات المتعددة مع فتياتٍ كثيرة سيرته في هذا المجال واسعة ومنتشرة، وحين أراد سمية جارته في نفس الحي رفضت وصدته فما كان منه إلا أن تقدم لخطبتها وتزوج بها، وافقت سمية عليه بالرغم من معرفتها بعلاقاته بعد أن وعدها أن يكون لها وحدها ولكن بدأ الشك والوساوس يلعبان لعبتهما في نفس سمية تراقبه ليل نهار كل همسة، لمسة، غمزة لها تفسيرات وتفسيرات حتى انقلبت حياتهم إلى جحيم لا يطاق، كره تسلطها وغيرتها العمياء وحين انفصلا لم يدركا أن الصغير هو من سيدفع ثمن نزقهما ورحلت الأم ورفضت أن تأخذ الصبي معها أرادت أن تترك له ذكرى موجعة منها، كلما رآها تذكر ما فعله بها لم تستجب لدموعه وتوسلاته لها أن تأخذه معها واستكثرت عليه ضمة إلى صدرها علها تكون الأخيرة، ربتت على كتفه ووعدته أنها ستعود وتأخذه حينما تستقر أحوالها وعيون وليد تعلقت بها وكأنها تناشدها بأن تنقذه من واقعٍ مظلم ينتظره ومن مستقبلٍ بات تخمينه من رابع المستحيلات..

أما الأب فقد اعتبر الصبي حملًا ثقيلًا عليه منذ اللحظة الأولى، اعتبر وجوده معه مشكلة فمن سيهتم به ومن سيقوم برعايته ثم إنه أنانٍ بطبعه لا يفكر إلا في نفسه فكر إن أراد الزواج من ستقبل بوجود طفل معها؟

وصار وليد منبوذًا من الجميع وبعد أن تزوجت الأم وفعل هذا بياسر ما فعل فقد تزوجت بعد انتهاء العدة مباشرة ولم تنجح محاولات الصلح التي بذلها الأقارب والجيران أن تعيد علاقة فقدت معنى وجودها من الأساس لم يشفقا على الصغير ولم يفكرا فيه كان همهما الانتقام ومن يربح جولة حتى ولو على حساب الابن الوحيد، سارع ياسر بالزواج ولم يفكر في زوجة تكون أمًّا لولده بقدر ما فكر في امراة تكوي قلب طليقته وجاءت العروس متأففة من كل شيء من الزوج المطلق والمنزل القديم والابن الحزين، فسقته العذاب صنوفاً حتى كره كل شيء.

وبمرور الأيام أتته فكرة ربما أمه تغيرت وصارت أكثر عطفًا عليه حتى وإن لم يرها سوى مرات معدودة خلال خمس سنوات مضت وبعد مشاجرة حامية مع زوجة أبيه وعلقةٍ ساخنةٍ من الوالد قرر الرحيل لمنزل أمه وحينما رأته تضاربت مشاعرها ارتمى في حضنها شعر بادئ الأمر بحبها ثم ما لبثت أن تذكرت والده فأبعدته عنها وسألته ما الذى أتى بك؟

وانهمرت دموع الصبي ورفع رأسه ليجد رجلًا طويل القامة على وجهه ملامح هيبة ووقار ربت على كتف وليد وقال له ادخل حجرتك يا بني مع أخيك الصغير، واتسعت حدقتا سمية وتبرمت في مقعدها بينما دخل الصغير مطأطئ الرأس وطلب الرجل من زوجته أن تنسى ذكرياتها المؤلمة فلا ذنب للطفل فيها لم تجد بدًا من تقبل الأمر وقد صار واقعًا ولاحظت شفقة حسين زوجها على وليد وحبه له واهتمامه به، فكانت تترك وليد مع أخيه الصغير ذو الأربعة أعوام وتذهب للتسوق وذات مرة عادت لتجد جلبة وضجيجًا في شقتها والجيران على وجوههم الرعب بعد أن كسروا الباب ودخلت غرفة الصبي وصرخت: ابني .. أين ابني؟ ونادت: حسام رد عليّ!!!!

طمأنتها جارتها: "يا سمية احمدي ربنا إنها جات على قد كدا ... ولادك بخير جوزي راح بيهم المستشفي الغاز اتسرب وأنا شميت الريحة من المطبخ كسرنا الباب والحمد لله هما كويسين"

جرت مهرولةً إلى المستشفي وتبعها زوجها وما لبثا أن تدافعا إلى الحجرة يحتضنان الصبي ويتفقدان جسده ويمطرانه قُبُلات تلو قُبُلات أما وليد فانزوى في ركن يشهد ذبح قلبه من جديد وسرعان ما انتبه حسين لمشاعر وليد فاقترب منه ضمه إلى صدره وكأن القدر يصالحه ويقدم له تعويضًا عن معاناته، اقتربت منهما سمية وأحست بمشاعر ابنها الحزينة فانفجرت باكية وأمسكت برأسه تُقبّله وتداعبه ... كدا يا وليد خضيتنا عليك يا ابني.

– ٢٦ –

أحلام البنات

كانت تلك آخر نقطة تختم بها سطرًا في طفولتها البريئة، مودعة إياها، وفي لحظة ملحمية الكمال كانت هي بعيدة تخوض مغامرة أخرى؛ رجل ذو عمامة يحمل دفترًا، منديل أبيض يتعانق تحته كفين .. يقترن اسمها باسمه في مخطوطة ميثاق غليظ ... صك مختوم وممهور بتوقيعه .. يتعهد فيه بالحفاظ عليها، وبمد جذوره في أعماقها، وغزل حكاية جديدة هي بطلتها، تتسارع نبضات قلبها، وتتلاحق أنفاسها، وهي تستمتع بتفاصيل حكايتها، جفلت لحظة وكأنها دهر وكانت نقطة فوق حرف من كلمة في حكاية كل بنت صافح النور المبهر عينها بعد ظلمة قصيرة كماء مطر تسلل إلى تربة عطشى فكّت ضفائر أحلامها الوردية وانسلت في هدوء تشارك قريناتها الفرحة بعد أن انتبهت أنها... في عرس صديقتها.

– ٢٧ –

النت

أخذ يضرب كفاً بكف ... يروح ويجيء .... والشرر يتطاير من عينيه

وتتراقص الأفكار المجنونة أمامه ... يكتم نارا موقدة في جوفه

يتنفس بعمق عله يهدأ ... فيعود للثورة من جديد

وهي تلملم حاجيات متناثرة ... وتجمع أغراضًا مبعثرة

أكواب، أطباق، كتب، أقلام

تفتح باب البراد وتغلقه ... تجري بسرعة ترفع الأواني

تخرج خبزًا وتضعه مرة أخرى

تفتح دولاب مطبخها

تدور في الحجرات

تتحاشى النظر إلى وجهه

كاد يفتك بها بنظراته، ويدور جدل في رأسها

لمَ عاد الآن؟ ... لمَ اقتحم عليّ عالمي؟

لمَ لمْ يخبرني بموعد عودته؟

وانتفضت على صوت رجَّ المنزل

فين الأكل يا ست هانم ولا النت شغلك؟

- ٢٨ -

من هي؟

أشعر أنك جزء مني، لا أستطيع التنازل عنكِ، فأنتِ رفيقتي تبدئين اليوم معي بلا كلل ولا ملل، وإذا أصابك بعض الفتور قليلٌ من تنشيط حميتك كفيل بجعلك سبّاقة.

حينما أشرع في إنجاز مهامي أبحث عنك .. أعترف أني بدونك تائهة ضائعة وأن أحضروا لي ألف بديل، فأنت مُلهمتي.

أتعرفين كم كان شعوري حين ظننت أني فقدتك، صرت أفتش في كل ركن وزاوية حتى الأرفف والأدراج وحين وجدتك كدت أضمك فرحًا

ونسيت وتناسيت جرحك لي وعلامته المحفورة حتى الآن بل وألقيت اللوم على نفسي، لم أعاتبك حين خفّ الألم بل عدت إليكِ من جديد، تُرى ما نهاية عشقي لكِ صغيرتي تُراك تبادليني نفس الحب وتحفظين الود ؟!!! أم ستستسلمين لأول يد تلمسك وتستجيبين لرغباتها، كم حافظت عليكِ وحميتكِ ورعيتكِ حتى تكوني برّاقة المظهر مشدودة العود صلبة القوام، وحينما سافرت بعيدًا عنكِ كم أطريت عليكِ ومدحت فيكِ وأنا أرى العجب من غيرك!

نعم أحبك

نعم أعشقك

صديقتي

رفيقة دربى

سكينة مطبخي

- ٢٩ -

مازن

ألقت عليه والدته تحية الصباح، اقتربت منه فابتسم لها وبادلها نظرات ممتنة، لم يردّ التحية فلسانه مشغول دائمًا لا يتوقف عن الهمهمة، جلس في ركنه الصباحي يتمتم بكلمات غير مفهومة، في عينيه خوف من مجهول يحرك رأسه بانتظام، جلست بجواره تضع له الطعام في فمه.

تذكرت حينما سافر والده بكت ملء جفونها وبكى الجميع بينما مازن يطلق ضحكات هيستيرية، وحين وقع أخوه وانكسرت ساقه انخلع فؤادها وسط قلق الجميع وترقبهم بينما مازن يدندن نغمات مجهولة غير مبالٍ بالجميع، ويوم تخرج أخيه الأكبر رقص البيت فرحًا وسط تبريكات الأقارب وتهنئات الأصدقاء سجد الأب شكرًا لله بينما مازن يبكي بكاءً موجعًا ودموعه تتسابق مع صرخاته كلما تحدثت معه والدته لم تسمع منه ردًا بل ابتسامة على وجنتيه وعينين محدقتين بسعادة وبراءة.

يجلس على مقعده ممسكًا بألعابه تارة عابثًا بكل ما تقع عليه يداه تارة أخرى، يسيل لعابه من بين أسنانه المتفرقة، ينادونه بركة، جبهته عريضة كاتساع الصحراء يداه المتعرقتان تلامس وجوه الجميع مع حركة جسده المعاق حبًا وحنانًا لا يتأففون منها بل يعشقونها وروحه التي قاسمت الجميع فرحًا وحزنًا وألمًا عليه.

- ٣٠ -

حبّتي

تشاركني كل شيء، صمتي، وحدتي، لحظات ضعفي حتى أوقات فرحتي لكنها تظل صامتة شاهدة عليّ صلاتي، طعامي، وردي، حتى عثرتي لم تعلن يومًا تمردًا أو عصيانًا، تمنحني الفرصة تلو الأخرى بينما أنا أشعر أنها تتحين للقضاء عليّ تتحفز للإيقاع بي ومن ثَمَّ افتراسي بعكس الواقع فهي تمنحني ساعات سكينة وهدوء وسلام نفسي، صرخت فيها وأنا أنظر إليها متى تتركيني؟ أجابتني بهدوئها المعتاد ونبرتها الوقور: "رفيقتي أنا عدم، مصيري إلى زوال ولكني أشعر بأنس معك فلمَ تكرهينني؟ لمْ أؤذيك، صاحبتك بصمت سنوات طوال وبالنهاية تبتلعيني مع شربة ماء، ثم إلى زوال" تمتمت منقبضة من ذكر الزوال تراها تُذكِّرني بأن الأجل دنا واقترب، كم احتاج إلى مزيد تصبر وأناة وعدت أتم وردي وأتضرع إلى خالقي أن يخفف عني داء عضال.

عن حبة دوائي أتحدث

شكر وتقدير

أشكر كل من دعمني؛ أسرتي وزوجي الذي اقتطعت من وقته الكثير

كما أشكر صديقاتي وأخص منهن:

الدكتورة حنان لاشين التي اكتشفت قلمي وساندتني

وأختي في الله أسماء لبيب التي كانت بَوْصَلَتِي في هذا الكوكب الأزرق

وحبيباتي

الشيماء أحمد

غادة عبيد

رحاب نبيل أبوستيت

سهيلة مدحت

صديقاتي جميعًا عيونكن كانت مرآتي

كما أشكر مجتمع حروف وفريق العمل على مجهوده الرائع

جزاكم الله خيرًا

حنان الشيمي

(زيزو) ☺

-الفهرس-

(تمت)